

قراءة في عمل الجمعيات النسوية في قضايا قتل النساء في المجتمع الفلسطيني

أديلا بياضي-شلون*

إذا نظرنا إلى تاريخ العمل النسائي والنسوي في السياق الفلسطيني منذ نكبة 1948، نرى أنّ عمل النساء الفلسطينيات كان حاضراً دائماً، اتّسم بالنخبوية، ومنذ بدايته اقتصر على الجانب الخدماتي ذي الطابع الديني والطبيقي. الأطر والجمعيات النسائية التي عملت على تقديم الخدمات عملت من خلال الوضع القائم بحيث رسخته وأعادت إنتاجه، ولم تعمل على إحداث تغيير مجتمعي حقيقي في واقع النساء. من هنا، بُرِزَت دائماً إشكالية تحديد ما إذا كانت هذه الجمعيات هي نسائية أم نسوية.

لقد شهد عَقد التسعينيات من القرن الماضي تزايداً ملحوظاً في عدد المؤسسات النسوية الفلسطينية والتي بَنَتْ عملاً مُمَأسساً يحمل الفكر والنشاط النسوبي، ولا يقتصر على الفعل النسائي. بعض من هذه الجمعيات كثُفَّ وضاعف ترسيخ مفاهيم نسوية في اللغة والممارسات المجتمعية المختلفة¹، مما أدى إلى إحداث تغيير مجتمعي انعكس بخروج النساء من دوائر التهميش والأبوية والتحرّك إلى الحيز العام، على نحو يضمن لهنّ حقهنّ في العيش بكرامة ودون عنف. في كتابها "الجمعيات النسائية والنسوية الفلسطينية في مناطق 48"، تشير جنان عبده أنّ الجمعيات القطرية عرفت

¹ هذه الجمعيات شملت: "جفرا" (1990); "الفنار" (1991); "نساء ضد العنف" (1992); "السنديانة" (1993); "الوفاء والأمل" (1993); "السوار" (1997); "الزهراء" (1997); "كيان" (1998); "سدرة" (1998); "الثريا" (1999); "نساء وآفاق" (2000); "اتحاد معاً" (2000); "الجن" (2001); "تالا" (2006); "البير" (2007).

نفسها تعريفاً واضحاً بأنّها نسوية، نحو: "كيان-تنظيم نسويٌّ؛ "السوار- الحركة النسوية العربية لدعم قضايا الاعتداءات الجنسية؛ وغيرها... أمّا الجمعيّات المحليّة، فهي تعرّف نفسها على أنّها نسائيّة؛ ولربما يشير ذلك إلى التخوّف المجتمعي من الفكر والتعريف النسوين.²

الحدّ من ظاهرة قتل النساء لا زال صعباً ومُضنياً

بالرغم من نجاح المؤسسات النسوية في إحداث تغيير جوهري في عدّة مجالات حيّاتية، وبالرغم من تعدد الممارسات والتوجهات الفكرية لهذه المؤسسات، اتفقت جميعها على ضرورة وحتميّة العمل على مناهضة العنف ضدّ النساء والذي يبلغ أوجه بقتل النساء. من المهم الإشارة هنا إلى أنّه، في مقابل ازدياد العمل النسوّي والحقوقي على الحدّ من العنف ضد النساء، تزداد -في ظلّ تزايد حالات القتل في السنوات الأخيرة- التحدّيات الماثلة أمام هذه المؤسسات، وتزداد التساؤلات حيال: "ماذا علينا وماذا بقي علينا أن نفعل؟"

هذه التساؤلات تنبثق من الوعي الكامل لهذه المؤسسات، لأبوية وذكورية المجتمع التي طالما غدت وكانت السبب الرئيسي في انتهاك حقوق وحرّيات النساء. إنّ ما يصعب على عمل هذه المؤسسات في كثير من الأحيان هو تذويت النساء لهذا القمع وممارسته بحقّ ذاتهنّ وبحقّ إناث ونساء في بيتهنّ ومجتمعهنّ. أبوية المجتمع وذكورية نسائه أصبح نضال المؤسسات النسوية أجمع لكنّه ليس الوحيدة، بل يمكننا أن نضيف إليه الصعوبات التي تواجهها هذه المؤسسات في نضالها اليومي أمام مؤسسات الدولة. لقد أثبتت الشرطة والنيابة في الكثير من حالات قتل النساء تقاعساً وتخاذلاً أدى إلى مقتل المرأة بعد أن كانت مُعنفة ومهدّدة بالقتل. إذًا، المؤسسات النسوية تقوم بنضال مستمرّ

2 عبد، ج. (2010). الجمعيّات النسائيّة والنسوية الفلسطينيّة في مناطق 48. مدي الكرمel- المركز العربي للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة، برنامج الدراسات النسوية.

يجاـهـة مؤسـسـات المجتمع البـطـريـكـيـة ومؤـسـسـات الـدـوـلـة الـبـيـرـقـاطـيـة والـتـي لا تـضـعـ المـجـتمـعـ الفـلـسـطـينـيـ عـامـة ونسـاءـه خـاصـة ضـمـنـ سـلـمـ أـولـويـاتـهاـ. المـرـأـةـ فيـ هـاتـيـنـ الـبـنـيـتـيـنـ تـجـريـ مـوـضـعـتـهاـ فيـ أـسـفـلـ السـلـمـ. السـؤـالـ الـذـيـ يـطـرـحـ نـفـسـهـ هـنـاـ: هلـ كـوـنـ المؤـسـسـاتـ النـسـوـيـةـ الـفـلـسـطـينـيـةـ فيـ الدـاخـلـ تـشـغـلـهـ نـسـاءـ يـجـعـلـ منـ عـمـلـهـ أـصـعـ بـكـثـيرـ منـ أـيـ مـؤـسـسـةـ حـقـوقـيـةـ أـخـرىـ؟ تـارـيـخـياـ، فيـ نـهـاـيـةـ سـنـوـاتـ السـبـعـيـنـ عـمـلـتـ بـعـضـ النـسـاءـ فيـ مـنـطـقـةـ الرـمـلـةـ وـالـلـدـ عـلـىـ التـظـاهـرـ ضـدـ قـتـلـ النـسـاءـ بـعـدـ حـالـاتـ القـتـلـ الـأـوـلـىـ فيـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ. لمـ يـكـنـ مـنـظـمـاـ هـذـاـ عـمـلـ، وـمـ يـوـثـقـ تـارـيـخـياـ، بلـ سـرـدـ شـفـوـيـاـ. بـيـدـ أـنـ الـكـثـيرـ مـنـ الـجـمـعـيـاتـ (منـ بـيـنـهـاـ عـلـىـ سـبـيلـ الـمـثـالـ لـاـ الحـصـرـ)ـ: "الـفـنـارـ"ـ؛ "الـبـدـيـلـ"ـ؛ "الـسـوـارـ"ـ؛ "نـسـاءـ ضـدـ الـعـنـفـ"ـ؛ "مـعـاـ"ـ؛ "نـعـمـ"ـ)ـ عـمـلـتـ جـاهـدـةـ مـنـذـ قـيـامـهـاـ عـلـىـ مـنـعـ مـارـسـاتـ الـعـنـفـ ضـدـ النـسـاءـ وـقـتـلـهـنـ جـسـديـاـ وـرـوحـانـيـاـ. فيـ ظـلـ تـزـايـدـ حـالـاتـ القـتـلـ لـلـنـسـاءـ، تـشـكـلـ فـيـ الـعـامـ 2010ـ اـتـتـالـفـ لـعـدـةـ مـؤـسـسـاتـ نـاشـطـةـ وـحـقـوقـيـةـ مـنـاهـضـةـ قـتـلـ النـسـاءـ، بـهـدـفـ التـكـافـ وـتـشـكـيلـ قـوـةـ أـكـبـرـ تـناـهـضـ قـتـلـ النـسـاءـ³.

منـ أـهـمـ إـنـجـازـاتـ عـمـلـ الـجـمـعـيـاتـ النـسـوـيـةـ فـيـ الـعـامـينـ 2010ـ 2011ـ مـنـعـ الشـرـطـةـ وـالـنـيـاـبـةـ وـسـلـطـاتـ الـدـوـلـةـ مـنـ اـسـتـخـدـامـ الـمـصـطـلـحـ "شـرـفـ الـعـائـلـةـ"ـ الـذـيـ كـانـ يـسـتـعـمـلـ بـعـدـ كـلـ حـالـةـ قـتـلـ، فـيـ مـحاـوـلـةـ مـنـ هـذـهـ السـلـطـاتـ أـنـ تـعـزـوـ ظـاهـرـةـ قـتـلـ النـسـاءـ إـلـىـ مـرـكـبـاتـ " ثـقـافـيـةـ"ـ مجـتمـعـيـةـ خـاصـةـ بـالـمـجـتمـعـ الـفـلـسـطـينـيـ فـيـ الـبـلـادـ. وجـاءـ الـخـطـابـ النـسـوـيـ ليـؤـكـدـ أـنـ قـضـيـةـ قـتـلـ النـسـاءـ هـيـ جـرـيـمةـ، وـأـنـ النـسـاءـ لـاـ يـقـتـلـنـ إـلـاـ لـأـنـهـنـ نـسـاءـ، وـأـنـ التـسـتـرـ عـلـيـهـاـ هـوـ مـخـالـفـةـ أـخـلـاقـيـةـ وـمـجـتمـعـيـةـ. عـلـاوـهـ عـلـىـ ذـلـكـ، تـمـكـنـ

³ يـضـمـ الـاتـتـالـفـ الـيـوـمـ كـلـاـ مـنـ الـمـنـظـمـاتـ الـآـيـ ذـكـرـهـاـ فـيـ ماـ يـلـيـ: السـوـارـ -ـ الـحـرـكـةـ النـسـوـيـةـ الـعـرـبـيـةـ لـدـعـمـ ضـحـاـيـاـ الـاعـتـداءـاتـ الـجـنـسـيـةـ؛ اـتـحـادـ الـمـرـأـةـ الـتـقـدـيـمـيـ؛ اـنـتـمـاءـ وـعـطـاءـ -ـ الطـيـرـةـ؛ إـعـلـامـ -ـ مـرـكـزـ إـعـلـاميـ لـلـمـجـتمـعـ الـعـرـبـيـ الـفـلـسـطـينـيـ فـيـ إـسـرـائـيلـ؛ الـمـنـتـدـيـ الـعـرـبـيـ لـلـجـنـسـاـنـيـةـ؛ الـرـهـراءـ لـرـفعـ مـكـانـةـ الـمـرـأـةـ؛ الـمـنـتـدـيـ الـنـسـوـيـ الـفـلـسـطـينـيـ؛ أـصـواتـ -ـ نـسـاءـ فـلـسـطـينـيـاتـ مـثـلـيـاتـ؛ بلدـنـ -ـ جـمـعـيـةـ الـشـيـابـ الـعـربـ؛ حـرـكـةـ النـسـاءـ الـدـيمـقـراـطـيـاتـ؛ مـدـيـ الـكـرـمـلـ -ـ مـرـكـزـ الـعـرـبـيـ لـلـدـرـاسـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـتـطـبـيقـيـةـ؛ جـمـعـيـةـ نـسـاءـ ضـدـ الـعـنـفـ؛ كـيـانـ -ـ تـنـظـيمـ نـسـوـيـ؛ مـعـاـ -ـ اـتـحـادـ الـجـمـعـيـاتـ النـسـاـئـيـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ النـقـبـ؛ مـرـكـزـ مـساـواـةـ لـحـقـوقـ الـمـوـاـطـنـيـنـ الـعـربـ فـيـ إـسـرـائـيلـ؛ مـرـكـزـ الـطـفـولـةـ -ـ مـرـكـزـ نـسـائـيـ مـتـعـدـدـ الـأـهـدـافـ؛ نـعـمـ -ـ نـسـاءـ عـرـبـيـاتـ فـيـ الـمـرـكـزـ.

الإشارة إلى أن تكثيف العمل على قضايا قتل النساء من قبل الجمعيات النسوية شجّع بعضًا من عائلات الضحايا المخدورات -ولا سيما النساء فيها- على كسر حاجز الصمت وتقديم شكاوى، والشهادة في المحاكم ضدّ الجاني.⁴ في المقابل، ثمة تحديات عديدة تواجه العمل النسوّي في سبيل الحدّ من هذه الظاهرة، تتمثل في قلة التمويل، وفي محدودية تجاوب المجتمع مع نداءات هذه الجمعيات لدعمها بالضغط على السلطات الرسمية والمجتمعية لفرض القانون وضمان الحياة بأمان للنساء المهدّدات بالقتل. إن النضال لاجتثاث الظاهرة لا زال طويلاً وصعباً ما دام العنف هو لغة القوّة فوق لغة الحقّ، وما دامت الفجوة قائمة بين التصريح المعلن والعمل في الواقع في المؤسسات المجتمعية والدينية والحزبية وغيرها. تكثر الأقنعة رغم رؤية الحقيقة. ولكن كفانا تسترًا؛ فحتى لو حاولنا دفن الحقيقة في قعر عميق ومظلم، هي هناك... موجودة ما دمنا موجودات وموجودين.

* أديلا بياضي- شلون، هي منظمة جماهيرية، كيان- تنظيم نسوي، حيفا.

⁴ مثلما حدث في عائلة "أبو غانم" بعد مقتل "حمدة أبو غانم" سنة 2007، قررت بعض النساء أن يكسرن حاجز الصمت فقمن بالإدلاء بشهادتهن (بمن فيهنّ أمها) أنّ أخاها "كامل" هو القاتل. فضلاً عن هذا، قامت إحدى قريباتها بالشهادة خلال التحقيق، وعلى الرغم من وعود الشرطة لها بتوفير الحماية لها فإنّها اختفت، وكان الظنّ الأكبر أنها هي كذلك قُتلت. على الرغم من هذه الشهادات، قامت المحكمة بالحكم عليه بالسجن 16 عاماً على أذنه شريك في القتل لا قاتل. وهكذا قُتلت حمدة مرتين. انظر/ي الرابط: <http://www.nrg.co.il/online/1/ART1/705/191.html>